المحاضرة الأولى: طبيعة البحث الفلسفي.

الأستاذ الدكتور: عبد الغاني عليوة.
قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.
جامعة محمد لمين دباغين سطيف2.

تمهيد

يُعدّ البحث الفلسفي من أرقى أشكال النشاط العقلي الذي يمارسه الإنسان في سعيه الدائم نحو الفهم والمعرفة، فهو لا يكتفي بما تقدّمه التجربة الحسية أو المعارف الجاهزة، بل يتجاوزها إلى التساؤل عن مبادئها وأسسها وغاياتها. إن طبيعة البحث الفلسفي تتجلى في نزوعه إلى التأمل العميق في القضايا الكلية التي تتصل بالوجود والمعرفة والقيم، وفي اعتماده على العقل والحجة بدل التسليم والاتباع. ومن خلال هذا البحث، يسعى الفيلسوف إلى تجاوز الظواهر السطحية للكشف عن المعاني الجوهرية التي تحدد علاقة الإنسان بذاته وبالعالم من حوله. ومن هنا، فإن دراسة طبيعة البحث الفلسفي تتيح لنا فهم ماهية التفكير الفلسفي، وتمييزه عن سائر أنماط البحث العلمي والديني، بوصفه تفكيرًا نقديًا حرًا مستهدفاً الحقيقة في أسمى صورها.

قبل الحديث عن ميتودولوجيا أي علم أو حقل بحث معين، لابد من البدء بإبستيمولوجيا هذا العلم، ويكون ذلك بالإجابة على الأسئلة الأولى المتعلقة به؛ ماهيته؟ مادته؟ خصائه ومميزاته؟ وأغراضه؟، وبعد ذلك يمكن الانتقال إلى نوع المناهج والتقنيات المعتمدة والأدوات الملائمة لخوض أغواره.

أولاً- ماهية التفكير الفلسفي

إن **ماهية التفكير الفلسفي** تتمثل في كونه تفكيرًا عقليًا نقديًا يتجاوز حدود المعطى المباشر، ليبحث في الأسباب والمبادئ الكلية التي تقوم عليها الظواهر والمعارف والقيم، فالفيلسوف لا يكتفي بما يبدو ظاهرًا أو بما هو متعارف عليه، بل يسعى دائمًا إلى التساؤل عن (لماذا؟) و(كيف؟) في كل ما يحيط به. التفكير الفلسفي يتميز بطابعه **التأملي والعقلي**، إذ يعتمد على التحليل المنطقي والحوار الجدلي لا على التجربة وحدها، كما أنه يتسم بالشمولية والعمق لأنه يتناول قضايا تتعلق بالوجود والإنسان والمعرفة والأخلاق والمعنى. إنه تفكير حر، لا يقبل التسليم بالأفكار دون تمحيص، ويهدف إلى بلوغ الحقيقة بمعناها الكلي، لا الجزئي. ومن هنا يمكن القول إن التفكير الفلسفي هو **جوهر الوعي الإنساني**، لأنه يُنمّي في الإنسان روح النقد والتساؤل ويحرره من سلطة العادة والمألوف.

في نظر الفلاسفة، يُعدّ التفكير الفلسفي أرقى أشكال النشاط العقلي الإنساني، لأنه لا يكتفي بوصف الواقع كما هو، بل يسعى إلى فهمه وتفسيره من خلال مبادئه الأولى وغاياته النهائية. فقد رأى **أفلاطون** أن التفكير الفلسفي هو ارتقاء بالعقل من عالم الحواس إلى عالم المثل حيث الحقيقة الخالدة، بينما اعتبر **أرسطو** أن الفلسفة تبدأ حين يتعجب الإنسان ويتساءل عن علل الأشياء وأسبابها الأولى. أما **ديكارت** فربط التفكير الفلسفي بالشك المنهجي الذي يقود إلى اليقين العقلي، في حين رأى **كانط** أنه تفكير نقدي يتساءل عن حدود العقل وقدرته على معرفة الحقيقة. ومن جانب آخر، رأى **هايدغر** أن التفكير الفلسفي هو عودة إلى سؤال الوجود ذاته، لا إلى الموجودات فقط. وهكذا يتفق الفلاسفة، رغم اختلاف مناهجهم، على أن التفكير الفلسفي يتميز بالعقلانية، والتأمل، والبحث عن الكلي، والسعي الدائم نحو الحقيقة التي تتجاوز حدود التجربة والمألوف.

الفيلسوف أو المشتغل في هذا الحقل المعرفي لا يكتفي بالتفكير بل ينتقل إلى نشاط أكاديمي علمي نسميه بحث أو "البحث الفلسفي" باعتباره مرحلة **منظمة ومنهجية** يتحول فيها التأمل والتساؤل إلى **دراسة علمية منهجية** تهدف إلى معالجة مشكلة فلسفية محددة، يستخدم فيها الباحث في الفلسفة أدوات المنطق، والتحليل، والمقارنة بين الآراء، وبناء الحجج للوصول إلى تصور أو نتيجة.

فالبحث الفلسفي إذن هو جهد عقلي منظم يسعى للوصول إلى الحقيقة في قضايا الوجود والمعرفة والقيم، دون الاعتماد على التجربة فقط، بل على التأمل العقلي والنقدي.

ثانياً- ضرورة البحث الفلسفي

يُسلم العقل الفلسفي الباحث بأهمية البحث، وهذا يبرهن على ماهية الفلسفة حسبه وهي" عملية تواصل مستمر مع الكائنات، وأن ماهية الفلسفة تكمن في البحث عن المعرفة لا في امتلاكها، إلا أن الفيلسوف يخطئ عندما يخون هذه الأصالة وينحدر إلى مرتبة ومعرفة عقدية مقبولة في تعابير نهائية معدة للانتقال بالتعلم والتعليم كمذاهب مكتملة إن من يتفلسف يكون دائما على درب الحقيقة، فالأسئلة هي أكثر أهمية من الأجوبة وكل جواب دائما بمثابة سؤال جديد"، وضرورة المنهج الذي يمثل عملية القيادة للبحث وتدبير وتنظيم حيثياته

إلى أن يصبح في قالب معرفي مكتمل؛ وهذا ما تؤمن به جل المذاهب والنظريات والأنساق الفلسفية؛ أي إيمانها **بلزومية المنهج للبحث الفلسفي** مهما كان نوعه سيما أن موضوعات الفلسفة متعددة لكثرة مشكلاتها وقضاياها، فإذا كان البحث Resarch يفيد معنى" الطريقة التي تحل بواسطتها المشكلات المعقد ة، كما يعرف بأنه محاولة منظمة للوصول إلى إجابات أو حلول للأسئلة أو المشكلات التي تواجه الأفراد أو الجماعات، في مواقعهم ومناحي حياتهم"، وهذا ما سعى الفكر الفلسفي إلى احترام شروطه واحترام قواعده العقلية والمنهجية عبر مختلف العصور الفلسفية والمعرفية من أجل تحقيق نظام معرفي يتسم **بالشمول والاتساق أو الانسجام الداخلي،** ذلك أن تقدم الفكر الفلسفي كما يقول (دلبوس DELBOS) "لم ينحصر فقط في السعي إلى زيادة التدقيق في صياغة مشاكله، وإنما كذلك في البحث عن منهاج، هذا المنهاج الذي يتحور حسب طبيعة المشكل الذي يريد الفيلسوف حله والمغزى الذي يتابع فيه الحل"، إن المكانة المركزية التي يشغلها "سقراط" في تاريخ الفلسفة اليونانية كانت" ترتبط دون شك بإسهاماته في المنهج، ووجود كلمة ديالكتيك (الجدل) في حد ذاتها -والتي قامت منذ عصره حتى عصرنا الراهن على مجموعة هامة من التصورات المنهجية - تدين في أصولها إلى طريقة سقراط في المناقشة الفلسفية وعندما سأل أرسطو نفسه ما الاسهام الذي قدمه سقراط للفلسفة أجاب بما يفيد أن سقراط يعد –في رأيه- أساسا مبتكر لمنهج ما في الفلسفة".

غير أن موضوعات التفلسف الهادف تظل مرتبطة بمجالات الفلسفة الرئيسية وهي: نظرية المعرفة، الميتافيزيقا، فلسفة العلوم، تتناول نظرية المعرفة إمكان قيام المعرفة الموضوعية ومواجهة حجج الشكاك أو استحالة قيام تلك المعرفة، نظرية الإدراك الحسي وموضوعات هذا الإدراك ومدى استقلالها عن تلك العملية الإدراكية واعتمادها عليها، ومعيار الصواب والخطأ في أحكامنا ومشكلات الذاكرة ومعرفة الماضي الذي لن يعود ومشكلات التصورات القبلية والمقولات وموضوع اليقين والاحتمال وهذه الموضوعات المحورية تتقاطع فيها الفلسفة والعلم في الكثير من الحيثيات مما يؤكد أن الفلسفة تقترب من لغة العلم وحقله" إن لدى الفلاسفة أدوات مشتركة مع كل أنواع الفكر البشري ولكن هل توجد أدوات فلسفية خاصة، أدوات ثابتة ودائمة يمكن أن نستخدمها كما نستخدم التقويم أو اللغة أو أشكال الاستدلال؟ لقد كان على جميع الذين مارسوا تعليم الفلسفة أن يحلوا أولا هذا المشكل، فالتعليم قبل كل شيء هو تبليغ للأدوات " لأن **الأداة المركزية هي العقل** وقدرته على التأمل والعقلانية والتفكيك والتحليل لأقصى مكونات الموضوع للوقوف على أصله الأول وعلاقاته المترابطة بغيره من الموضوعات المشتركة أو المنفصلة؛ يقول كنجروود:" للفلسفة خصوصية

معينة وهي أن التفكير فيها جزءا منها، فنظرية الشعر يمكن أن تكون ذات أهمية للشاعر أو غير ذات أهمية -لقد اختلفت الآراء حول ذلك –إلا أنها ليست جزءا من الشعر، ونظرية العلم ونظرية التاريخ ليستا جزئيين من العلم والتاريخ، وإذا ما درس العلماء والمؤرخون هذه المسائل، فإنهم يدرسونها لا بوصفهم علماء أو مؤرخين، بل بوصفهم فلاسفة، أما نظرية الفلسفة فهي ذاتها مشكلة من مشكلات الفلسفة؛ وهي ليست مشكلة ممكنة فحسب، إنما هي مشكلة لا مناص من إثارتها إن عاجلا أو آجلا"؛ وهذا يعزى إلى طبيعة الفلسفة المجردة والتأملية والتي تخضع إلى عدة دوافع تدفع بالعقل نحو التفلسف منها؛

- فعل **الدهشة** التي اعتبرها أفلاطون أصل الفلسفة فالإنسان ينفعل داخليا أمام مظاهر الكون سائلا العقل عن ماهيتها وفي هذا السياق يؤكد أرسطو أن الدهشة تولد الفضول الذي يغذي **الشك** وعن الشك المولد للشك والباعث على روح التفلسف بشكل منظم ومنهجي أي شك هادف لا عبثي يقوم على التأمل المنتج لا الفاسد والعقيم وفق قواعد تأملية عقلانية يقول ديكارت "إن التأمل قد أثار في نفسي شكوكا كثيرة، فما أدرى السبيل إلى الخالص منها، ولكني أريد أن أمضي في الطريق عينه، حتى أهتدي إلى شيء يقيني لا شك فيه أو على الأقل حتى أعلم علم اليقين أنه لا شيء في هذا العالم بيقيني، لقد شككت في جميع الأشياء التي أراها، ولكن من يدري فربما هناك شيء غيرها مختلف عنها ولا قبل لنا بالشك فيه"، الشك المعزز بالنقد نحو ترويض العقل وتأسيس حقيقة موضوعية يقول كانط" إن النقد يلهمنا لأول مرة بالروح الفلسفية"، إذا من لا يمتلك خاصية النقد الفلسفي لا يمكن أن يكون له انتماء للمجال التداولي للفلسفة.

ويعد **السؤال** الفلسفي بمثابة تخصيب للعقل المتلقي نحو كسر الإبهام والدخول في عالم التكشف ودلالته المعرفية على اعتبار أن الفلسفة معرفة عقلية تبحث في كل الأشياء والموجودات للوصول إلى عللها الأولى وفق منهج استنباطي استدلالي عقلاني؛ وهذا يتوقف على جنس الأسئلة المطروحة والمثارة في صيغ متعددة ومتفاوتة حسب درجة التعقيد والشمول بين مشكلة وإشكالية تارة ولا يكفي الموجه في عملية بناء الدرس الفلسفي بالجواب، بل يعمل على تحويل كل إجابة مهما كانت طبيعتها وقيمتها لسؤال أخر، لأن مهمة الفلسفة توليدية إبداعية تواصلية و استمرارية، مادامت الفلسفة موجهة لفهم الحياة في أبعادها الثلاثة (ماضي، حاضر، مستقبل)، فإن الكثير يربطها بثلاث مدلولات من حيث علاقتها بالواقع؛ أولا هي **نظرة شاملة** إلى الحياة في مجموعها، وهي من جهة أخرى **حل للمشكلات** التي تتوسط بين العلم والدين، وهي من جهة ثالثة **الآراء** التي تنتهي إلى العمل والسلوك مادامت سنة الحياة الحركة والنمو والإبداع.

من أجل إبقاء فعالية التساؤل مستمرا بحثا عن الحقيقة لفك إبهام الجهل بها يؤكد كارل ياسبرس" إن الأسئلة في الفلسفة أهم من الأجوبة وينبغي أن تتحول كل إجابة إلى سؤال جديد"، وهذا ما يؤكد البعد النظري العميق لدهشة الفيلسوف والتي تعبر عن حركة فكرية من الخارج إلى الداخل أو العكس الصحيح، وهذا يتوقف على طبيعة الموقف أو الشيء محل الدهشة ودرجة ردت الفعل الإدراكية له. يجمل كارل يسبيرس مقومات التفلسف في مقولته" وعلى الجملة فإن أصل الفلسفة يقوم يقينا في الاندهاش وفي الشك وفي تجربة الملابسات النهائية، ولكن هذا كله ينطوي في نهاية الأمر في إرادة التواصل الحقيقي بين الناس".

ثالثاً- بواعث البحث الفلسفي ودوافعه

ثمة عناصر مهمة وأولية باعثة للتفكير الفلسفي والبحث والتقصي عن المعرفة والكشف عن الحقيقة، منها كما سبقت الإشارة؛

- **الدهشة**: أول التفلسف حتى لا نكرر ما ذكرناه أنفاً يقول أرسطو من لم يخلع السبات عن عينيه، ومن لم يتحرر من التقليد في قلبه وقله، لن يستشعر الحاجة إلى الفلسفة، ولن يكون بمقدوره أن ينتبه، أو ينظر في شيء، ولا أن يُقارب فلسفياً أي أمر أو مسألة.
- **الشك والقلق**: حيال فراغات الطبيعة والروح والعقل، كلها بواعث للتفكير ودواعي للتأمل والعمل المنهجي، ومن ثمة إلى الأسئلة المقلقة المتعلقة بها.
- الأساس الأول للمعالجة الفلسفية حسب ماجد فخري هو **التجربة الحسية المباشرة**، فبالحواس والمعرفة الحسية رغم الأخطاء المحتملة يبدأ الذهن حركته باتجاه المعرفة، ومن مجرد الاحساسات والانطباعات الحسية وصولاً إلى التجريد والادراك والفهم واللغة- حتى في أشكالها الاشارية الدالة الأولى-
- بعد الادراك الحسي الظاهر تأتي قوى الإدراك الحسي الباطن مثل التمثّل والتذكّر والتخيل والتوهم. بعد ذلك يأتي الإدراك العقلي، أي الارتقاء بالموضوع من الجزئيات المتفرّقة إلى الكليات خلال عملية التجريد. وتترقى الإدراكات العقلية وتصبح أكثر غنى وتعقيداً، فتنشأ المقارنة والمقابلة والحكم، وينشأ التركيب أو التأليف وفق قواعد أو نماذج ذهنية – أي ينشأ المنطق-، ويلي التأليف أو التركيب والاستنتاج (وهو ذروة المراحل العقلية ونهايتها)، والاستنتاج هو النتيجة أو الحل للأسئلة الواردة في المقدمات،

والاستنتاج على أنواع، وهنا يتنوع الاستدلال الفلسفي ويأخذ غير شكل أو طريقة بغية العثور على حل للسؤال المطروح.

رابعاً- أدوات التفلسف

تقوم التجربة الفلسفية على مجموعتين من الأدوات؛

1- أدوات التفكير: وهي تضم العناصر السيكو-فكرية الضرورية للحظة التفكير الفلسفي. وهذه العناصر تتدرج من الإحساسات والمشاهدات والملاحظات والخبرات الناتجة عنها وتحديدا فعل التجريد، إلى الإدراك (الحسي) والتذكّر والتخيّل والتوهّم، إلى الإدراك العقلي والجمع والربط والمقارنة واستخلاص النتائج أو الاستنتاج، مع دور خاص للغة.

2- أدوات المقاربة: في كل حقل- علمياً كان أو إنسانيا أو اجتماعياً- فأهمها اثنان التحليل والتركيب.

أما التحليل هو الأداة التي ما انفكت ومنذ عهود الإنسان الأولى تستخدم في جميع أشكال مقاربة الفكر لموضوعاته، وفي أنواع المناهج كافة عدا المفارقة أو المتجاوزة للفكر مثل العرفاني أو الإشراقي، ويتألف التحليل من لحظتين أو خطوتين؛ القسمة والتفكيك، والتشريح.

معظم الباحثين متفقون أن الجانب الآخر من التحليل هو التأليف أو التركيب syntesis، وهو إعادة بناء عناصر المعطى التي جرى فكفكتها بواسطة التحليل. التحليل والتركيب إذاً هما أداتان تستخدمان بشكل أو بأخر في كل مقاربة أو معالجة فلسفية، بل التحليل هو أكثر من أداة، بل صار أقرب إلى الفلسفة المتكاملة أو المضمون الفلسفي منه ى اعتباره مجرد أداة للتفكير والبحث، بدأ هذا الاتجاه بتحليل العبارة الفلسفية، باعتبارها الأمر اليقيني الوحيد، لينتهي إلى فلسفة تحليلية كاملة وفي غير اتجاه: لدي الوضعيين المنطقيين، كما لدى جورج مور وبرتراند راسل، وكما لدى الوضعيين الجدد كما فيتجينشتاين.

خامساً- مناهج البحث الفلسفي

في الفلسفة لم تعرف عبر تاريخها منهجاً واحداً شاملاً سلكه كل الفلاسفة في تشييد معارفهم أو الدفاع عنها، بقدر ما هنالك مناهج مختلفة ومتنوعة، يقول كارل بوبر" إن الفيلسوف ليس ملزما على غرار العالم بإرجاع كل شيء إلى الظواهر المحسوسة الخاضعة للملاحظة، وهذا يعني أنه ليس ملزما بأن يقتصر على

المنهج التجريبي"، بل يوجد من المناهج في نظر بوبر التي يمكن للفيلسوف استخدامها بقدر ما يريد، والمهم هنا هو أن تكون لديه مشكلة تستحق النظر وأن يحاول صادقا حلها، وهو ما ذهب إليه باسكال أيضا حيث

تحدث عن مناهج الفلسفة بصيغة الجمع قائلاً" أن هنالك من المناهج، أي الطرائق التي ينبغي أن نبتدعها بقدر ما يوجد من مشاكل نسعى لحلها"، ونذكر من هذه المناهج؛

- المنهج التأملي العقلي مع أفلاطون وديكارت.
- المنهج التحليلي مع أنصار الفلسفة التحليلية المعاصرة.
- المنهج الجدلي مع هيغل وماركس.
- المنهج الظاهراتي أوالفينومينولوجي مع إدموند هيسرل.
- المنهج الوجودي مع جان بول سارتر وكيركغارد.

سادساً- أهداف وغاية البحث الفلسفي

يهدف كل جهد فلسفي أو مقاربة فلسفية لموضوع ما إلى الأغراض الأربعة التالية؛

- **اكتشاف** كلي أو جزئي لمعرفة جديدة أو لمعطى جديد (الاكتشاف)، وهي مهمة الفلسفة منذ زمن وكشوفاتها لم تنقطع إلى يومنا هذا.
- **معرفة أوثق أو إيضاح أفضل** (بشكل من الأشكال) لمعطى كان لنا معرفة سابقة به غير واضحة أو غير منظمة او غير مستوية (البرهان)، صارت وظيفة الفلسفة الأكثر حيوية في البرهنة واليقين المعرفي من خلال أدواتها المنطقية، خاصة منها البرهان المنطقي (كارل بوبر).
- **الاقناع** (إقناع الآخر أو المخاطب، وهي الخطابة عند أفلاطون)، وهي الوظيفة العملية البارزة للفلسفة منذ فلاسفة اليونان الأوائل خاصة منهم السوفسطائيين، سقراط ثم أفلاطون.
- **النقد،** هو موضع تميز الفلسفة بل تفرّدها، حسب راسل يشكل النقد الوظيفة الحقيقية للنشاط الفلسفي. فأدوات النقد، كل نقد وفي كل حقل، أدوات فلسفية؛ من التفكيك والتحليل والمقارنة والربط والتقاطع إلى الاستدلال وتبيان ما كان خفيًّا، إلى إضفاء المعنى والقيمة والمعطى وضوع النقد.

خلاصة

إن البحث الفلسفي هو أرقى أشكال النشاط العقلي، لأنه يقوم على التفكير الحر والنقدي الذي يسعى إلى فهم الوجود والمعرفة والقيم من خلال العقل لا من خلال التسليم أو التقليد. وهو يتأسس على الدهشة والشك والتساؤل، ويعتمد على أدوات ومناهج متعددة مثل التحليل والتركيب والتأمل العقلي. وغاية البحث الفلسفي

ليست امتلاك الحقيقة النهائية، بل الاستمرار في طلبها عبر الحوار والنقد والبرهان، لذلك تبقى الفلسفة فعلًا متجددًا للتساؤل والوعي، وروحًا توجه الإنسان نحو معرفة ذاته والعالم بعقلانية وحرية.